معرض الخريف السنوي يُبرز الفن التشكيلي في سورية

وزير الثقافة: للفن جانب مهم جداً في إيصال رسالة الشعوب.. ونحن نؤمن بالشباب المتابع لمرحلة الأساتذة

| سوسن صيداوي

التقليد المتبع إن كان نافعاً ودافعاً، فيا مرحباً به. هناك أفعال نقوم بها وتندرج العادة على اتباعها، كي تصبح الأخيرة تقليداً سنوياً، ومما اعتيد القيام به، معرض الربيع والخريف للفن التشكيلي، وفي كل مرة يقضي التقليد بتوجيه التحية في كل دورة من دوراتهما لأحد التشكيليين السوريين الذين كانت لهم مساهمة فاعلة في الحركة التشكيلية السورية. وبرعاية وزارة الثقافة وبحضور الوزير محمد الأحمد ومعاونه علي المبيض، وفي غمرة من الحضور الفني والإعلامي المشجع لهذه المبادرة، تمّ افتتاح معرض الخريف السنوي ٢٠١٧ تكريماً لمجموعة من الأسماء الراحلة في الفن التشكيلي وهي: الفنان رضا حسحس، الفنان سعد الله مقصود، الفنانة مها قواص، والفنان مروان قصاب باشي. متضمناً المعرض باقة منوعة في الأسلوب والمستوى لأعمال من التصوير (زيتي- أكريليك- مائي)، والنحت، والغرافيك، وأخيراً الفيديو آرت.

مهام الثقافة الاستفادة من الخبرات التي تشكّل منها هذا الفن العظيم

الحرب ثقافية بامتياز

قام وزير الثقافة محمد الأحمد بافتتاح معرض الخريف السنوي ٢٠١٧ مشيراً إلى أهمية ربط المعرض بمكان أثري لأن في الأمر تمسكاً واعتزازاً بما لنا من تراث حضاري مهم، مؤكداً أن الحروب أول ما تستهدف حضارة الأمم وثقافتها والدليل في ذلك ما حصل في العراق ومصر ومؤخراً في سورية، متحدثاً «في البداية أحب أن أقول: إننا أمة تستند إلى سنوات عديدة من الحضارة والتراث والتاريخ المجيد، فنحن نمتلك ما لا يمتلكه الغير، لذلك كانت سورية مستهدفة، وبالنسبة إلى إطلاق معارض كهذه مهمة من أماكن تراثية، يعود السبب لأن خان أسعد باشا من الأماكن التراثية- والذي انطلق منه معرض الخريف السنوي- والطرف الآخر يحسدنا على ما نمتلكه من كم هائل من الآثار، وعلى الكم الهائل من التاريخ المجيد، وتقديراً واعتزازاً بما لدينا لابد لنا في مناسبات ثقافية من هذا النوع، من إظهار هذه الأمكنة والعودة إليها كلما قصدنا العمل الثقافي. وهنا لابد أن أشير إلى نقطة دائما أتحدث عنها، وهي كوننا أمة تمتلك هذا الماضي العريق، لهذا تم استهدافنا، فمثلا عندما سقطت بغداد، أول ما تم نهبه كانت آثار متحف بغداد وذلك بغرض محو الذاكرة، وكذلك لما تعرضت مصر لما تعرضت إليه، حاولوا أيضا نهب المتحف المصري لمحو الذاكرة، وبالتالي أقول هذه الحرب لم تكن فقط حربا سياسية، بل هي حرب ثقافية بامتياز، كما أشار السيد رئيس مجلس الوزراء عماد خميس يوم افتتاح مهرجان يوم وزارة الثقافة (يوم الثقافة.. لوعي الحياة)، ونحن تنبّهنا لهذه المسألة منذ البداية، لذلك كانت وزارة الثقافة طوال سنوات الحرب، تحاول أن ترد على قتلة البشر وأكلة الأكباد، وعلى كل من روّع ومارس القتل بوحشية، من خلال الفكر والثقافة بهذا الماضي المجيد الذي نمتلكه.

وفي مناسبة افتتاح معرض الخريف السنوي، نؤكد أن هذا المعرض يبرز الفن التشكيلي في سورية، واليوم عندما نستعرض هذا الكم الكبير من اللوحات، نكتشف كم أن هذا البلد يمتلك من الحضور بما تضمنه من ألوان وفن وحالات ومشاريع، إذاً هذا ليس أمرا عبثيا، بل يستند- كما أسلفت- إلى تاريخ مجيد وإلى حضور سوري عظيم، لهذا علينا بشكل جدي الحفاظ عليه وإبرازه. هذا إضافة إلى الإشارة إلى الجانب المهم للفن في إيصال رسالة الشعوب، واليوم يمكننا القول بأننا انتصرنا من خلال تضحيات الجيش العربي السوري، كما انتصرت سورية بفضل مثقفيها ومبدعيها وفنانيها، وبفضل هذا الموروث العظيم الذي نملكه. أما بالنسبة إلى الأعمال المعروضة هنا نرى بأن المعرض يتجدد من عام إلى آخر، ونحن نؤمن في وزارة الثقافة بالشباب الذين يتابعون مرحلة الأساتذة، ومن الأساتذة الذين شاركوا بأعمال: أسماء الفيومي، وإدوار شهدا والأستاذ علي سرميني- أنا فقط استشهدت بما أسعفتني به الذاكرة- وأيضا يضم المعرض مجموعة كبيرة من الأسماء اللامعة في الفن التشكيلي السوري، ويمكن للمشاهد أن يلاحظ بأن الأعمال هي خليط بين القديم والحديث، وأخيرا نحن نؤكد أنه من مهام الثقافة بأن نكمل دور من سبقونا وأن نستفيد من الخبرات التي تشكّل منها هذا الفن العظيم وخاصة أن الوزارة تمتلك عشرات الآلاف من هذه الأعمال».

نبض القيم المضافة

من جهته كان الفنان التشكيلي علي سرميني حاضرا كعادته في افتتاح معرض الخريف السنوي ومشاركا أيضا، كان يتجول بين جنبات المعرض، سعيداً بما يراه من لوحات وأعمال تؤكد بنظره أن الفن التشكيلي هو نبض الثقافة ونبض الحياة، مشيدا بالدور المهم الذي تقوم به وزارة الثقافة في تشجيع الحركة التشكيلية السورية بالرغم من الظروف التي تعرضت لها سورية خلال السنوات السبع الماضيات، متحدثا «في الحقيقة منذ عام ١٩٩٢ وأنا أشارك في معارض الدولة الرسمية، وأشارك دائما في معرض الربيع السنوي في حلب والخريف السنوي في دمشق، وهنا أنتهز الفرصة كي أشكر وزارة الثقافة والقائمين عليها لتشجيع الفن والفنانين، وخاصة أن الوزارة حتى في زمن الإرهاب الظلامي، لم تقف يوما أو تتوان عن نشاطها، بل على العكس نراها حاضرة وتقوم دائما بتشجيع المعارض الفنية والنشاطات والورشات، ليس هذا فقط بل الأهم وزارة الثقافة وخلال السنوات السبع لم تتقاعس عن اهتمامها بالفنانين، فالقائمون هم أوفياء لنا، بتشجيعهم وتكريمهم لنا ونحن أحياء، كي نضيف للشباب، ونقوم بتطوير الحركة التشكيلية السورية بالرغم من توقف الحركة التشكيلية في مكان آخر، إذاً الوزارة تابعت لأنها تعتبر الفن التشكيلي حالة من حالات الإبداع والفن الجميل وحالة من حالات الثقافة أيضا، وهو نبض الحياة ونبض التألق، ونبض التطور، وأخيرا نبض القيم المضافة إلى التشكيل السوري والعربي والعالمي».

بالحجر المكسّر نبني

تحدث الفنان التشكيلي مصطفى علي عن مشاركاته في معرض الخريف السنوي منذ كان شابا، مشيرا إلى أن مشاركة الشباب إلى جانب الأساتذة المخضرمين في الحركة الفنية التشكيلية هي دافع باعث مهم للاستمرار في عملية الإبداع الفني، متابعاً «هذا المعرض أصبح جزءا من تاريخ الفن التشكيلي المعاصر، وأنا منذ كنت شابا وحتى اليوم أشارك في هذا المعرض. وفي المعرض هناك دائما تجدد بالوجوه، فهو يجمع دائما شباباً يشاركون مع الأساتذة الكبار. في الحقيقة العلاقة بين جيلين يخلق نوعاً من الحركة ونوعاً من التنويع، ومشاركة الشباب مع الجيل الأكبر تعطيهم نوعاً من الحماس والاستمرار بعملية الإبداع والإنتاج الفني. بالنسبة إلى عملي الذي شاركت به في المعرض مستوحى من الأحداث، وهو مبني من الشظايا ومن آثار الحرب التي ساهمت بتدمير البلد وبتدمير الإنسان السوري، إلا أن العمل واسمه «سقوط الحجر» يدل على أنّ الحجر يفقد أجزاء ولكن لا يُدّمر ولا ينتهي، وبالنتيجة نعود وننهض ونتكوّن من جديد ونتشكل كي نبني حياة فنية وحياة ثقافية وحياة اجتماعية في هذا البلد».

المعرض يحتاج إلى إعداد أفضل

من بين المشاركين كان للفنان التشكيلي إدوار شهدا مشاركة، ولكنه اقتصر في حديثه على بعض من سلبيات المعرض، مطالبا بالاهتمام أكثر من حيث الإعداد والتقديم في الأعمال، قائلاً «في الحقيقة يحتاج المعرض بشكل عام إلى إعادة نظر، سواء من خلال طريقة العرض، أو من خلال طريقة الانتقاء، فهناك مستويات متفاوتة جدا بين الأساتذة وبين الشباب، كما أن هناك أعمالا جدّ جميلة، وبالمقابل هناك أعمال جدّ سيئة- فالمعرض خليط- هذا إضافة إلى أن كثرة الأعمال لا تسمح للمشاهد بأن يرى العمل بطريقة صحيحة، وخاصة أنّ كل الأعمال معروضة بالقرب من بعضها. كلامي هذا ليس بجديد، فهذه هي طريقة المعرض ولم تتغير، وبالطبع هذا لا يمنع أن أعود وأزور المعرض أنا والأصدقاء الفنانون، لنشاهد المعروضات بروية ونتناقش بها، ولكن بشكل عام أنا أرى أن معرض الخريف السنوي يحتاج إلى إعداد أفضل من الحاضر».

منح دافعاً كبيراً

من المشاركات الشابة الفنانة التشكيلية رنيم اللحام التي شعرت بالفخر لأن عملها كان بجانب أعمال أساتذتها، مؤكدة أن معارض كهذه تشّجع الشباب وتحملّهم المسؤولية، وقد قالت «أنا خريجة فنون جميلة ومعيدة بالجامعة وطالبة ماجستير، شاركت بلوحة ١٠٠×١٢٠ وهي موديل بورتريه مع يدين، هي لوحة كنت أنجزتها ضمن أعمال سابقة وأحببت أن أشارك بها، وخاصة أنه أمر جميل جدا أن نشارك نحن الشباب مع فنانين كبار له اسمهم الكبير بالفن، وأن يتم عرض أعمال لنا بجانب أعمالهم، هذا الأمر، منحني دافعا كبيرا كي أنطلق لأكون يوما في أعمالي على القدر من الأهمية مثل أساتذتي، وبالنسبة للمستوى في اللوحات التي يضمها المعرض، من الطبيعي ألا تكون كلّها بالمستوى نفسه، فالفن نسبي ولا يمكن أن يُعجب الكل وإلا كان الأمر ليس صحيحا».

نجمات عشرينيات القرن الماضي خارج الذاكرة

سلطانات وملكات وهوانم ذاك الزمن... يندر من يعرفهن

| أحمد محمد السح

يبدو إلى الكثيرين اليوم أن الرجوع إلى تراثيات الغناء القديم هو عمل بحثي أكثر منه عمل تذوقي للاستماع والاستمتاع بما جادت به عقول الملحنين وحناجر المغنين في بداية مرحلة التسجيل الغنائي في البلاد العربية، وقد باتت هذه التسجيلات اليوم شبه مفقودة، كما أن قليلاً من المهتمين على المستوى الفردي أو المؤسساتي تمكنوا من إيصال هذه التسجيلات للمستمع، ربما لقناعتهم أن المستمع صارت هذه الأغنيات خارج اهتماماته ولن تشفي ذائقته المتبدلة، فلو بحثت عن تسجيلات لأسماء غنائية لسيدات لمع نجمهن في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، فستجد أن عدد الأغاني المتبقية لهن قليلة، ومتكررة في جميع المصادر كما أن المعلومات الشخصية والمعرفية حولهن قليلة جداً ومتكررة بصحيحها وخطئها كذلك.

ففنانات ذاك الزمن كنّ مغامرات حقيقيات بسمعتهنّ مرفوضات من البيئة التي خرجن منها، وبالوقت نفسهً محاطاتٍ بهالةٍ من الأبهة والتعظيم من الأوساط الغنائية والسلطات التي حكمت بلادهن، وببحث سريع ستكتشف أن أقدم الأسماء الغنائية النسائية وُلدت في مصر، ومن ثم العراق، في حين تأخرت كل دول المنطقة العربية في تقديم فنانات، فالمغرب مثلاً قدم فنانته الأولى في ستينيات القرن الماضي، في حين كانت مصر والعراق تنتج الأغاني للملحنين في العشرينيات، والثلاثينيات، وتتركز أسماء الملحنين الذين اهتموا بهذه النساء، بسيد درويش وعبده الحامولي الذي احتضن زوجته ألمظ، وهو صاحب أقدم تسجيل على الاسطوانات غرامافون، ومعه الشيخ أبو العلا محمد وزكريا أحمد ومحمد القصبجي بعدهم بقليل.

امتازت الأغاني التي غنتها تلك الفنانات بأنها تميل إلى مناجاة الطبيعة ومحاكاة الحياة اليومية، فلم تكن الكلمات التي يغنيها أغاني ذات لغة شعرية عالية أو جملة مدهشة إنما كانت كلاماً يشبه الكلام اليومي مع بعض التنغيم والتقفية، وإدخال اللغة الفصيحة بما يتناسب مع لغة المجتمع الذي يخاطبونه وهو مجتمع النخبة لا مجتمع العوام، وفي مصر حصراً هذه المجتمع كان ذا أصول تركية أو يونانية أو رومانية وبالتالي لغته العربية غير سليمة فيضطر إلى التكسير في اللغة لاحتواء هذه الأغاني وفهمها والتواصل معها، أما الألحان فقد كانت مستلهمة من الأدوار والموشحات الأندلسية التي تعتمد التخت الشرقي البسيط وآلات ذاك العصر والمتناسبة مع حاجة الزمن وإمكانياته.

تميزت أصوات فنانات العشرينيات والثلاثينيات بقوّتها، فهي ليست أصواتاً تتميز بجمالية أو بحة خاصّة إنما يجب أن تكون قوية فقط، ربما لتسمع جمهور المستمعين جميعاً، كما أن لكل فنانة مسرحها الخاص ولها فرقة من المحيطين به تتصدرهن «المساعدة» وهي شابة تتبع الفنانة تكون ذات صوت جميل، تربّيها الفنانة على يدها وتعلمها أصول الغناء، وغالباً ما تتحول المساعدة إلى فنانة مستقلة لها مسرحها ومساعدتها لاحقاً، كما أن الفنانة يجب أن تحصل على لقب خاص بها لا يقال لغيرها، ويكون لقباً تعظيمياً فيه أصول سلطوية مثل «الملكة، السلطانة، الست، وغيرها» طبعاً في بداية التسجيل تقول المساعدة اسم المغنية مع لقبها، واسم شركات الاسطوانات وهي محصورة بثلاث شركات (بيضافون) ويجب أن يتم التأكيد أن التسجيلات من غير «خشخشة» كما أن المساعدة لا بد أن تصيح بصيغة تشجيعية بين حين وآخر باسم «معلمتها» المغنية تأكيداً على أنها قد سلطنت بشكل كامل مع الأغنية.

ويجب الوقوف عند عدد من الأسماء التي كانت نجوماً لا تقارن بأحد ومنهن:

رتيبة أحمد وهي شقيقة الفنانة الأكثر شهرةً منها بقليل فتحية أحمد، فوالدهما أحمد الحمزواي كان منشداً ومغنياً، وقد انتهجت بناته نهجه، وهن من حي الخرنفش القديم في القاهرة، لحّن لها كل ملحني تلك الأيام، لكنها تميزت بالأغاني الخفيفة التي وُصفت بالخلاعة، ويبدو أن هذه كانت ميزة حياتها الخاصة التي يبدو أنها كانت غير سويّة فقد كانت نموذجاً لفنانات ذاك الزمن بمعنى الغواني أكثر منهن كمغنيات، حتى إنها لقبت بملكة الكخة والدحة نسبة إلى أغنية لها تقول فيها «أنا حاسة» اليوم تغيب معظّم أغنياتها عن الذاكرة لكن من الممكن أن تجد لها بعض التسجيلات مثل (أنا حاسة- قولوا لي بالذمة يا أفندية- يا حلاوة دي الصباحية دويتو مع عزيزة حلمي يعتبر من أقدم الدويوتهات النسائية وهو ردحية نسائية شعبية جداً- يا أنا يا أمك)، ويبدو أنه من الصعب تحديد مواليدها بدقة.

نعيمة المصرية: من مواليد ١٨٩٤ وتوفيت عام ١٩٧٦، لكنها اعتزلت الغناء مبكراً لذلك اختفت عن الساحة، مع أنها كان من الممكن أن تستفيد من تقنيات الإذاعة والسينما لنجد لها أرشيفاً فقد عُمِّرت طويلاً. وقد امتلكت مسرح الهامبرا. أكثر الملحنين تعاوناً معها كان داوود حسني، لها بعض الأغاني التي ظلت محفورة في الذاكرة دون أن يعرف الكثيرون أنها لها مثل (يا بو الشريط الأحمر- يا بلح زغلول يا عزيز عيني- يا ميت مسا عالعيون الكويسة...) ومن الممكن إيجاد عدد من أغانيها منتشرة عبر الانترنت مع أن هذه الأغاني تم تجديدها بأصوات متعددة، وبقية الأغاني اندثرت. وكان لقبها الست.

منيرة المهدية: لقبت بالسلطانة عاشت حياة رفاهية وكانت أولاهن وأشهرهن في عالم الغناء، وكان ملوك مصر يعطونها قيمة خاصة (١٨٨٥- ١٩٦٥) اعتزلت الفن مجبرةً بعد أن أصبحت خارج المنافسة مع الفنانات اللواتي جئن بعدها صغيرات، جميلات وناجحات مثل أم كلثوم وأسمهانً وليلى مرًاد، لها فيلم واحد اسمه الغندورة ١٩٣٥، من أغانيها التي بقيت (أسمر ملك روحي - يمامة حلوة - بعد العشا).

صديقة الملاية: (١٩٠١ - ١٩٦٩) مطربة عراقية سيدة الغناء في العراق، ذاع صيتها كثيراً منذ عشرينيات القرن الماضي، وظلت دون منافسة تذكر حتى ستينيات القرن الماضي لا تزال من أغانيها المشهورة (ربيتك زغيرون) ولكن غيرها من الأغاني اندثر اليوم.

ثمة أسماء كثيرة من الفنانات قد تجد لهن أغنية هنا أو أغنية هناك لكن السر في اندثار هذه الأغاني واختفاء أسماء المغنيات اللواتي كنّ من الأبهة الشيء الكثير، أنهن حين دخلت السينما حياة الفن في مصر كنّ خارج السياق فجميع الصور لهن تؤكد بدانتهن إن لم تقل قلة جمالهن، كما أنهن كن أميات أصواتهن قوية لكنهن لا يفهمن في الموسيقا أو الشعر أو الأدب، فكان الملحنون يعتمدون تحفيظهن الكلام تحفيظاً، وهذا ما دفع الملحنين للابتعاد عنهنّ حين دخلت أم كلثوم الوسط، فتاة أصغر سناً وتعرف القراءة والكتابة، وتجيد أحكام التجويد من خلال حفظها للقرآن، لتكون أم كلثوم أول فنانة تقدّم الفن بنقاء صورته مبتعدةً عن صورة الغواني التي سادت قبلها، وهو سرّ خلودها دون شكّ.